1 الغاية من دراسة التاريخ العثماني

مقدمة

تعود فكرة تأليف هذا الكتاب إلى حدث جرى في ڤيينا صيف سنة 1983، حين وقفت أرقب طوابير تلامذة المدارس وهي تسير على أرصفة العاصمة متجهة نحو المتحف الأثري بمناسبة مرور ثلاثمئة سنة على حصار العثمانيين لمدينة ڤيينا للمرة الثانية سنة 1683. لقد كانت تلك السنة بالنسبة لهؤلاء الأطفال وأساتذتهم ولعامة الشعب النمساوي (ومعظم الأوربيين)، السنة التي نجوا فيها من الغزو العثماني الأجنبي لبلادهم.

برزت الإمبراطورية العثمانية على مسرح التاريخ سنة 1300م أو نحوها في الجزء الغربي من آسية الصغرى، غير بعيد عند مدينة اسطنبول الحديثة، واستطاعت أن تتوسع غرباً وشرقاً بعد أن قهرت المملكة البيزنطية والصربية والبلغارية بالإضافة إلى الإمارات التركية في الأناضول، وأخيراً دولة المماليك المتمركزة في مصر. وبحلول القرن السابع عشر كان العثمانيون قد بسطو

سلطانهم على أراضٍ شاسعة في غرب آسيا وشمال أفريقيا بالإضافة إلى جنوب شرقي أوروبا. والواقع أن الجيوش العثمانية حاولت وأخفقت مرتين في فتح ڤيينا: الأولى في سنة 1529 والثانية سنة 1683.

نعود إلى المتحف الأثري في ڤيينا لعله يعطينا فكرة عن طبيعة أحداث سنة 1683. هنا يرى الناظر خيمة الصدر الأعظم وحوائجه الشخصية التي استولى عليها المدافعون مما يدل على الانسحاب المفاجئ للقوات العثمانية التي كانت قبل ذلك بأيام قليلة تحاصر المدينة. بيد أن وصول الحلفاء لنجدة المدينة المحاصرة وفي مقدمتهم ملك بولندة جون سوبيسكي أجبر الجيوش العثمانية على الفرار بعد أن تكبدت خسائر جسيمة أودت إلى كارثة.

دأب العثمانيون منذ مئات السنين بالتغلغل شمالاً شيئاً فشيئاً في شبه جزيرة البلقان إلى أن أصبحوا على مقربة من الأراضي الناطقة بالألمانية. والحق يقال أن هؤلاء الغزاة العثمانيين ألقوا الرعب في قلوب أعدائهم الذين وجدوا أنفسهم يواجهون قوة لا تقهر. يكفي أن نذكر أن الأمهات في ڤيينا كُنَّ إذا أردن تأديب أطفالهن يلجأن إلى تخويفهم من «البعبع التركي» الذي سيأتي للاقتصاص منهم إذا لم ينصاعوا لرغبات أهلهم. لكن هذا الوضع تغير بعد سنة 1683، إذ أن الكارثة التي حلت بالجيوش العثمانية حول أسوار ڤيينا أدت إلى تغيير ميزان القوى بين الإمبراطورية العثمانية وإمبراطورية الهابسبورغ (الإمبراطورية النمساوية).

ينبغي الإشارة إلى أن لفظ «أتراك»في مفهوم هؤلاء الأمهات لا يعني الأتراك «كعرق»، وذلك لأن المقاتلين في صفوف الجيوش العثمانية لم يكونوا جميعهم بالضرورة أتراكاً بل كانوا ينتمون إلى قوميات ومذاهب شتى عاشت في كنف الإمبراطورية العثمانية. لذلك علينا التمييز بين اللفظين «تركي» و«عثماني» عندما نتحدث عن الدولة التي قادتها سلالة آل عثمان، وهي الدولة التي أطلق عليها الأوربيون في غربي ووسط وجنوبي أوروبة اسم «الإمبراطورية التركية».

والواقع أن لهذه التسمية ما يبررها إلى حد ما من حيث أن الأسرة العثمانية المالكة انبثقت من أصول تركية كما هو الحال بالنسبة لبعض رعايا الدولة. ولكننا سنرى لاحقاً أن العنصر التركي المؤسس سرعان ما فقد خصائصه التركية الصرفة نتيجة التزاوج المستمر مع شعوب وأقوام مختلفة. ويمكن القول أن الإمبراطورية العثمانية نجحت بفضل استيعابها للكثير من الأقوام والأعراق (الاثنيات) المختلفة والاستفادة من طاقاتهم واعتمدت عليهم في ترسيخ سلطة الدولة وهيبتها، وبذلك ابتعدت عن جذورها التي ترجع أصلاً إلى نزوح عشائر تركية انطلقت من أواسط آسيا نحو الشرق الأوسط (انظر الفصل 2). وعلى أية حال فقد أصبح اللفظ «تركي» مرادفاً لكلمة «مسلم» فيما بعد. بيد أننا نفضل استخدام اللفظ «عثماني» لأن هذا اللفظ أدق لكونه يشير إلى مجتمع متعدد الأجناس والأديان ويدين بنجاحه إلى هذه التعددية السكّانية.

ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن تهديد العثمانيين لأوروبا الوسطى توقف نهائياً بعد سنة 1683 بالرغم من احتفاظهم بأجزاء من جنوب شرقي القارة نحو مئتي سنة سيطروا خلالها على البلدان التي أصبحت اليوم دولاً تشمل بلغاريا وصربيا واليونان ورومانيا، إلى أن ـ كما قال السياسي البريطاني غلادستون ـ، تم إخراجهم «هم وأمتعتهم» من البلاد التي أخضعوها. لكن الحكم العثماني عمّر لفترة أطول في البقاع الآسيوية والأفريقية من الإمبراطورية. إذ بقيت سورية ولبنان والعراق وفلسطين والأردن والحجاز خاضعة للحكم العثماني حتى مطلع الحرب العالمية الأولى. وفي العقود الأخيرة قبل أن تلفظ الإمبراطورية أنفاسها سنة 1922، كانت الدولة العثمانية قد فقدت تلك المقاطعات الأوروبية التي كانت بمثابة واسطة العقد وعنوان قوتها وحيويتها. وفي أيامها الأخيرة يمكننا القول بأنها لم تعد سوى دولة آسيوية في الشرق الأوسط، بالرغم من أنها بقيت لبضعة قرون تلعب دوراً حيوياً في تاريخ أوروبا العسكري والسياسي، إلى أن أجبرتها معاهدة برلين سنة 1878 على التخلي عن مجمل ممتلكاتها في البلقان. ولا نغالي إذا قلنا بأن الدولة العثمانية بقيت زهاء 600 سنة على المسرح السياسي الأوروبي مثلها في ذلك مثل فرنسا وملوك الهابسبورغ.

التاريخ العثماني في سياق التاريخ العالمي

تُعتبر الإمبراطورية العثمانية من أعظم الإمبراطوريات في التاريخ وأكبرها وأطولها عمراً. إذ شملت معظم الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وأجزاء من شمالي البلقان والشاطئ الشمالي للبحر الأسود وهي أجزاء لم تخضع يوماً لحكم الدولة البيزنطية. يجب أن نتذكر أن الإمبراطورية العثمانية نشأت قبل سنة 1300 ودامت إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. والجدير بالذكر أن هذا الكيان بدأ بالتوسع في نفس القرن الذي اجتاحت فيه جحافل جنكيزخان مناطق شاسعة من أوروبة وآسيا بعد أن قضت على دولة السنغ SUNG في الصين. في تلك الحقبة كانت فرنسا وإنكلترا على عتبة الحرب التي عرفت بحرب «المئة سنة». أما في أفريقيا فقد كانت دولة بنين الكبرى قد بدأت تتوسع في غربي القارة. أما في الأمريكيتين فقد كانت امبرطورية الأزتك في بداية نشأتها في وادي المكسيك. والواقع أن إمبراطورية آل عثمان التي ولدت في العصور الوسطى بقيت قائمة حتى زمن قريب نسبياً، ولا تزال حية في ذاكرة الكثير من الناس حتى يومنا هذا. كان والدي يبلغ من العمر تسع سنوات وأمي في الخامسة عندما زالت الإمبراطورية العثمانية من الوجود. وهناك عائلات كثيرة تحمل أسماء «عثمانية» في كل من تركيا وسورية ولبنان والعراق ومن الجيل القديم، بعضهم نشأ وتعلّم في ظل الحكم العثماني. موجز القول أن آثار هذه الإمبراطورية لا تزال ظاهرة للعيان (انظر الفصل 10).

كانت الإمبراطورية في القرن السادس عشر تقف في مواجهة مجموعة من الدول القوية الفتية مثل إنكلترا وإسبانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة (نمسا ـ هنغاريا). أما الدول المدن city states مثل جمهوريتي جنوى والبندقية في حوض المتوسط، فقد كانت علاقة العثمانيين بهاتين القوتين أبلغ أثراً في المدى القريب من علاقاتها بالقوى الأخرى، وذلك بفضل النفوذ السياسي والتجاري الكبير لهاتين الدولتين اللتين امتلكتا أساطيلاً تجارية ربطت الهند والشرق الأوسط بحوض المتوسط وأوروبا الغربية. في غضون ذلك برزت في المشرق إمبراطوريتان كبيرتان: الإمبراطورية الصفوية في إيران وإمبراطورية المغول في شبه القارة الهندية وهاتان الإمبراطوريتان بالإضافة إلى الإمبراطورية العثمانية سيطرتا على أراضٍ امتدت من ڤيينا غرباً إلى حدود الصين شرقاً مما مكّن هذه الإمبراطوريات مجتمعة من التحكم بميزان القوى السياسي والاقتصادي في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا والبرتغال تغزوان العالم الجديد وتنهبان خيراته. ومن المؤكد أن الصين (آنذاك تحت حكم أباطرة المِنغ) كانت في ذلك الوقت أقوى وأغنى دولة في العالم.

كانت سنة 1453 السنة التي أجهز العثمانيون فيها على الدولة البيزنطية التي صمدت زهاء ألف سنة بدءاً من القرن الرابع للميلاد حتى القرن الخامس عشر. بيد أن العثمانيين لم يدمروا الدولة البيزنطية فحسب بل ورثوا إلى جانب ذلك التراث الروماني الشرقي. والواقع أن السلطان محمد الثاني فاتح

القسطنطينية في تلك السنة أعلن في حينها أنه القيصر الجديد. أما السلطان سليمان الكبير(القانوني) الذي حكم في فترة لاحقة فقد وضع نصب عينيه تخليد عاصمته بتحويلها إلى روما الثانية. والجدير بالملاحظة أن العثمانيين أبقوا على اسم القسطنطينية الذي يخلد اسم مؤسسها (الإمبراطور قسطنطين) واستخدموه في مراسلاتهم الرسمية وعلى نقودهم وطوابعهم عندما ظهرت الطوابع لأول مرة في القرن التاسع عشر. ولا غرو فقد اتبع العثمانيون في إدارتهم بعض النظم البيزنطية، فكان السلطان هو البابا والقيصر إن جاز التعبير، بمعنى أن أئمة المسلمين وعلماءهم كانوا يخضعون لإدارته كما كان الحال في الدولة البيزنطية. وكانت طبقة علماء الدين تشرف على القضاء والمحاكم. أما النظام الإقطاعي فكان مقتبساً عن ذلك المعمول به في الدولة البيزنطية. ولئن كان العثمانيون مدينين للبيزنطيين في كثير من الأمور، فهذا لا يعني بأنهم لم يطوروا نظاماً خاصاً بهم.

وهناك عوامل أخرى قوية غير بيزنطية ساهمت في تكوين النسيج السياسي والاجتماعي للدولة العثمانية. وكما سنرى لاحقاً فقد نشأت الإمبراطورية العثمانية في خضم الفوضى التي واكبت نزوح القبائل والعشائر التركية الرّحل من موطنهم الأصلي في أواسط آسيا إلى منطقة الشرق الأوسط بعد سنة 1000 للميلاد. لقد كانت الدولة العثمانية بحق آخر دولة تركية إسلامية نشأت بفعل هذه الهجرات المتعاقبة بعد فناء الدولة السلجوقية

وإمبراطورية تيمورلنك. لكن «إسلام» هذه الأقوام كان مشوباً بشعائر وطقوس موروثة تعود إلى ما قبل اعتناقهم الإسلام وتجلت في شعائر الأسرة العثمانية الحاكمة. وبقيت هذه الشعائر تمارس من قبل الطبقة الإدارية بالرغم من الثقافة الإسلامية التي تبناها العثمانيون من مصدرين رئيسين هما: إيران والعالم الإسلامي في شرق البحر المتوسط. خلاصة القول أن النظام العثماني كان وليد مزيج من ثقافات وأعراف ذات أصول بيزنطية وتركية وبلقانية وأخيراً إسلامية.

وقد استطاع العثمانيون بدورهم أن يؤثروا على تطور نشوء عدة دول أوروبية والسياسات الخارجية لهذه الدول، ومن جملتها السياسة الإقليمية للاتحاد السوفيتي السابق ، فيما يخص أمنه القومي. وتعود جذور هذه السياسة إلى زمن روسيا القيصرية التي تنبهت إلى وجود جار قوي يحول بينها وبين الولوج إلى «المياه الدافئة» أي البحرين الأسود والمتوسط. والحق أن العثمانيين ظلوا لقرون في صراع وحروب مع روسيا القيصرية استمرت من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين إلى أن اختفى كلاهما عن الخارطة. وقد كان لهذه الحروب أثر بالغ على رؤية روسيا لمصالحها. فمنذ أن نشأت إمارة موسكو ، وجد الروس أنفسهم محاطين بأعداء أقوياء من الجنوب والغرب مما دفعهم إلى التوسع والسيطرة لضمان أمنهم. أما دولة الهابسبورغ على ضفاف الدانوب فقد ولدت هي الأخرى في ظروف إقليمية غاية في الفوضى وكان لزاماً عليها أن توقف المد

العثماني الزاحف نحو الشمال. وهكذا قدر لدولة الهابسبورغ وحاضرتها ڤيينا أن تقود المقاومة ضد العثمانيين وكانت بمثابة خط الدفاع الأول في وسط أوروبا بعد أن أخفقت الممالك البلقانية في الجنوب في إيقاف الزحف العثماني. وما من شك أن العثمانيين قد لعبوا دوراً حاسماً في تطور دولة الهابسبورغ وما آلت إليه.

لقد قُدّر للدولة العثمانية أن تلعب دوراً خطيراً في التاريخ العالمي بحكم موقعها الجغرافي عند مفترق الطرق المؤدية إلى آسيا وأوروبا وأفريقيا. والحق أن هذا الدور لم يتضاءل بعد كارثة سنة 1683 والضعف الذي اعترى الدولة العثمانية بعد ذلك والواقع أن هذا الضعف أدى إلى عدم الاستقرار على الصعيد الدولي، إذ أخذت الدول المجاورة تسعى لقضم ما يمكنها من الأراضي العثمانية أو على الأقل لمنع دول أخرى من الاستيلاء على هذه الأراضي. وقد عُرفت هذه الظاهرة في التاريخ الأوروبي « بالمسألة الشرقية» وتعني باختصار: من مِن الدول العظمى سيرث البلاد الخاضعة للدولة العثمانية بعد زوال سيطرتها عنها. هذه هي القضية المركزية التي كانت محور الدبلوماسية الدولية في القرن التاسع عشر. وفي سنة 1914 اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى التي أسهم في إشعالها فشل القوى الكبرى في الوصول إلى اتفاق حول هذه المسألة.

ثمة سبب آخر يدعونا لدراسة الإمبراطورية العثمانية وإعطائها حق قدرها في التاريخ العالمي، وهو النموذج الإداري

المتسامح الذي اعتمدته في إدارة شؤونها. وهذا الجانب يستحق دراسة متأنية، لاسيما في هذا العصر الذي فتح باب الهجرة أمام مختلف الشعوب ويسر لها الاحتكاك بشعوب ومجتمعات أخرى بفضل المواصلات وتكنولوجيات الاتصال الحديثة. والحق أن معاملة الإدارة العثمانية لرعاياها لا يمكن وصفها بأنها معاملة قاسية، فالنظام السياسي العثماني كان يقضي بعدم التعرض للناس في ممارسة شعائرهم الدينية سواء أكانوا مسلمين أم يهود أو نصارى. ولا غرو فالإسلام يقوم على مبدأ التسامح فيما يتعلق بأهل الكتاب أو أهل الذمة أي اليهود والنصارى. والدين الإسلامي يحض على حماية الذميين في البلاد المفتوحة وعدم المساس بحريتهم في ممارسة عقائدهم الدينية. وهذا لا يعني أن رعايا الدولة من مسيحيين ويهود لم يُضطهدوا من حين لآخر بالرغم من مبدأ التسامح الثابت الذي أصرت الدولة على التقيد به. والحق أن هذا المبدأ العام بقي لعدة قرون يحكم العلاقات بين مختلف شرائح المجتمع العثماني، بيد أن الشقاق بدأ يذر قرنه في السنوات الأخيرة من حياة الإمبراطورية. ومهما يكن من أمر فقد قدمت الدولة العثمانية للعالم نموذجاً للتعايش بين مختلف الطوائف والأعراق.

أثر الإمبراطورية العثمانية في الثقافة الأوروبية

لابد أولاً من تنبيه القارئ إلى أننا نركّز على تأثير العثمانيين في الثقافة الأوروبية حصراً قاصدين بذلك لفت انتباه القارئ الأوروبي بالدرجة الأولى لهذا التأثير في تاريخ وثقافة أوروبا

الغربية. وهذا لا يعني أو لا يقلل من أهمية تأثير العثمانيين على مجتمعات أخرى غير الأوروبية.

وجد العثمانيون أنفسهم بحكم موقعهم الجغرافي يواجهون دول أوروبا الغربية التي قُدّر لها أن تسيطر على العالم فيما بعد. وقد كان لهذا الاحتكاك أثره العميق في الهوية القومية والثقافية لكل من العثمانيين والأوروبيين. فالشعوب تستشعر خصوصيتها ومميزاتها من خلال احتكاكها بالثقافات الأخرى. وعلى ذلك يمكننا القول بأن العثمانيين كانوا أحياناً يركزون على هويتهم الإسلامية بصفتهم مجاهدين في سبيل رفع راية الإسلام. ولكن ذلك لم يمنع الحكام العثمانيين من استخدام عناصر مسيحية يونانية وبلغارية وصربية وغرب أوروبية في جيوشهم وفي ميادين أخرى. أما بالنسبة للأوروبيين وكذلك الأمريكيين المتحدرين من أصول أوروبية فقد كان العثمانيون يمثلون الحضارة «الأخرى» مقابل الحضارة الأوروبية. وأحياناً كان «العثمانيون» يتمتعون بفضائل يُحسدون عليها من وجهة نظر بعض المفكرين السياسيين أمثال مكيافيلي وبودان ومونتسكيو الذين امتدحوا في كتاباتهم استقامة وانضباط الموظفين العثمانيين من مدنيين وعسكريين. وتجدر الإشارة إلى أن جميع المفكرين السياسيين في أوروبا كانوا قد عالجوا في عصور مختلفة الحاجة إلى إصلاح أنظمة الحكم في بلادهم. ولمّا كان توجيه النقد بشكل مباشر للملوك في تلك الأزمنة أمراً محفوفاً بالأخطار، فقد وجد هؤلاء المفكرون أنه

باستطاعتهم انتقاد سلوك أولياء أمرهم بالإشارة إلى ما اعتبروه جوانب إيجابية في الإدارة العثمانية. ومن جهة أخرى فقد نظر الأوروبيون إلى العثمانيين وكأنهم برابرة يفتقرون إلى الحضارة ويتصرفون بوحشية، وأخيراً كفاراً بخلاف المسيحيين المؤمنين. تماماً كما كانت شعوب انكلترا وفرنسا وألمانيا في عصور سابقة ينظرون إلى المسلمين في المشرق العربي باعتبارهم شعوباً غريبة تتعارض تقاليدها وعاداتها مع التقاليد والقيم الأوروبية الغربية. وقد بقيت هذه الصورة في مخيلة الأوروبيين الذين دأبوا على اعتبار العثمانيين مجتمعاً منحطاً تارة، وتارة شهوانياً منغمساً في الملذات في قصور الحريم وخارجها. على حين كان الأوروبيون يتوهمون أنهم يمثلون حضارةً وقيماً أرقى خالية من مثل هذه الموبقات. فالأوروبي كان يعتبر (من منظوره طبعاً) أنه ابن مجتمع يتحلى أفراده بضبط النفس والاعتدال والعقلانية في تصرفاتهم.

إننا ننسى أو نتناسى أثر العثمانيين في الحياة الأوروبية. فعلى سبيل المثال، ينسى أغلب الأوروبيين أو الأمريكيين أنهم مدينون للعثمانيين بالقهوة التي يحتسونها وكذلك لزهرة «التوليب»؛ وأخيراً وليس آخِراً، لقاح الجدري الذي يقينا شر هذا المرض. لقد أدخل العثمانيون هذه المكتشفات إلى أوروبا بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. والواقع أن حياة الناس في أوروبا قد تأثرت في مرحلة مبكرة بفعل توسع الإمبراطورية العثمانية. وقد طال هذا التأثير الدين والسياسة. وبالجملة يمكن

القول أن هذا التأثير كان يزيد أو ينقص بقدر بُعد أو قُرب البلد المعين من حدود الدولة العثمانية.

والحق أن « الفولكور» الأوروبي الشعبي لا يخلو من الأساطير والخرافات التي تسيء إلى العثمانيين بقدر ما تضحك. ففي القرن السابع عشر نجد الكثير من الحكايات تدور حول سيَر السلاطين وأفعالهم، نذكر منها حكاية وقوع بايزيد الأول (1389 ـ 1402) في أسر تيمورلنك الذي وضع السلطان الأسير في قفص حديدي. وقد نُشرت هذه القصة سنة 1648. ولكن أغلب القصص المتداولة كانت تميل إلى التركيز على وحشية العثمانيين وقسوتهم. ومن الأمثلة على ذلك، الطريقة التي قضى فيها السلطان سليمان الكبير (القانوني) على الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان من المقربين إليه. وفي مسرحية فرنسية مُثلت سنة 1612 لم يتردد كاتب المسرحية في إظهار محمد الفاتح كسلطان يتصف بالوحشية والطغيان، ولم يكتف الكاتب بذلك، بل جعل والدة السلطان تشرب دم أحد ضحايا ابنها. في حين أن محمد الفاتح كان في الواقع مطلعاً على ثقافة وفنون عصره وقادراً على التحدث بأكثر من لغة. وهناك قصص أخرى متداولة لا تقل غرابة، كتلك التي تجعل الجنود العثمانيين يقدمون الضحايا على مذبح إله الحرب الروماني (مارس). بيد أن زوال التهديد العثماني المباشر لأوروبا بعد الهزيمة التي منيوا بها سنة 1683 خارج أسوار ڤيينا، غيّر الصورة التقليدية للعثمانيين في أذهان العامة من الأوروبيين.

ومع بداية القرن الثامن عشر، وبعد أن شعر الأوروبيون بالأمن والطمأنينة تجاه خصمهم العثماني، بدأوا يقتبسون عنه ويجنحون إلى تقليده. ففي غضون هذه الفترة أسهم العثمانيون في إثراء الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية، إذ يعود إليهم فضل إدخال آلات النقر الموسيقية (من دفوف وطبول وصنوج....) في الأوركسترا الحديثة. ومنذ 1720 أو نحو ذلك وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت « الموسيقى التركية» تستهوي عشاق الموسيقى في أوروبا. وقد وجدت هذه الموسيقى سبيلها إلى البلاطات الملكية في أوروبا التي استهوتها الإيقاعات التي تولّدها الطبول والصنوج والدفوف إلى آخر ما هنالك من آلات النقر. أما أصل هذه الموسيقى فيعود إلى الجوقة الموسيقية التي كانت تواكب القوات الإنكشارية لإذكاء الروح القتالية ونشر الرعب في صفوف العدو. مما يجدر ذكره أن ملك بولندة أوغست الثاني (1697 ـ 1733) أبدى إعجابه الشديد بالموسيقى الإنكشارية إلى حد أن السلطان العثماني أهداه فرقة مؤلفة من 12 أو 15 عازفاً.

وكذلك إمبراطورة روسيا «آن» التي أرسلت سنة 1725 إلى اسطنبول تطلب تزويدها بفرقة مماثلة. وبحلول سنة 1741 كان أباطرة الهابسبورغ في ڤيينا يتمتعون بفرقهم الخاصة. وبعد ذلك بفترة يسيرة اتّبع ملك بروسيا التقليد نفسه. وفي لندن شُكّلت فرقة من هذا القبيل سنة 1782 وكان قارعو الطبول (والدفوف) وضاربو الصنوج من الأفريقيين الذين استُقدموا لهذا الغرض.

وهناك تقليد آخر لا يزال متبعاً حتى اليوم، ويتمثل في رئيس الطبالين Drum major الذي يتقدم الفرقة حاملاً صولجاناً يتلاعب به مقلداً قائد الفرقة الإنكشارية الذي كان يستخدم شيئاً مماثلاً لضبط الإيقاع.

ويبدو أن شعبية الإيقاع الانكشاري إذا جاز التعبير، انتقلت من الأوركسترا إلى ما نسميه اليوم الموسيقى الغربية الكلاسيكية. وهناك مقطع رائع في السمفونية التاسعة لِ بتهوفن التي عُزفت لأول مرة سنة 1824، تصوّر زحف العساكر الانكشارية. وقد وجدت «الموسيقى التركية» تعبيراً لها في أعمال موسيقية أخرى مثل: السمفونية الرابعة لِ برامز والسمفونية العسكرية لِ هايدن، وسمفونية «وليام تل» لروسيني و«تانهويزر» لڤاغنر.

وهناك سوناتا (لحن لآلة مفردة أو لآلتين) لِ موزارت، واللحن الرئيسي في هذه الحالة مستوحى من الموسيقى الإيقاعية التركية Rondo alla turc، والواقع أن مثل هذه الألحان قد أثر على موسيقى الجاز الأمريكية لاسيما في موسيقى دايف بروبك وأحمد جمال. أما في مجال الأوبرا فقد كان التاريخ العثماني مصدر إلهام لعدد من الأعمال أو المسرحيات الغنائية كان أولها المسرحية الغنائية التي أخرجت في مدينة هامبورغ والتي تصور حصار العثمانيين لڤيينا وقيصر الصدر الأعظم مصطفى باشا. وهناك أيضاً الأوبرا «تيمورلنك» (1724) التي ألفها هاندل. وموضوعها هزيمة وأسر السلطان بايزيد على يد الفاتح الكبير تيمورلنك. وهناك موضوعات أخرى تناولها موزارت في الإطار

نفسه ومنها أوبرا «الهروب من قصر الحريم» سنة 1782. أضف إلى ذلك أوبرا روسيني «تركي في إيطاليا» و«الفتاة الإيطالية في الجزائر».

موجز القول أن الموسيقى الأوروبية استلهمت بعض مواضيعها من حياة المجتمع العثماني بشتى جوانبه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى وفي أواخر القرن الثامن عشر تحديداً، بدأت الأزياء «التركية» تغزو الشرائح العليا في المجتمع الأوروبي بدءاً بـ«مدام دو بومبادور» في بلاط الملك لويس الخامس عشر. وفي بولندة على سبيل المثال أخذ النبلاء يرتدون الأثواب العثمانية، ويركبون الخيول «العربية». وأصبح البعض يرتاد المقاهي التي تقدم القهوة التركية، ويرتدي ما يشبه السراويل العثمانية الفضفاضة المصنوعة من الحرير الملون بألوان زاهية ناهيك عن تدخين الغليون التركي (النارجيله) وتناول الحلويات «التركية».

لكن هذا «الهوس التركي» أخذ يتلاشى في القرن التاسع عشر، لتحل محله الصورة البشعة القديمة لوحشية الأتراك وهمجيتهم وفساد حكمهم. وحين وصف السياسي البريطاني البارز غلادستون أعمال الأتراك في بلغاريا بـ «المرعبة» كان لكلماته صدى واسعاً لدى الجمهور. وإلى جانب هذه الصورة القاتمة نجد صورة أخرى لا تخلو من الطرافة. فالتركي هنا يمثل دور المهرّج تارة، وتارة أخرى العاشق الذي يطلق لشهواته العنان. وبقدوم القرن التاسع عشر أصبح المجتمع التركي في

نظر الأوروبيين مجتمعاً تُرتكب فيه الفواحش بحيث بات هذا المجتمع مادة غزيرة للأدب الإباحي المنحط Pornography وقد ذهب عدة أدباء أوروبيين أبعد من ذلك، ومن جملتهم اللورد بايرون والروائي بيير لوتي وحتى «لورنس العرب»، إذ اعتبر هؤلاء، الإمبراطورية العثمانية أرض الأحلام التي يستطيع المرء فيها أن يشبع رغباته وشهواته الجنسية. ولعل هؤلاء الكتاب الثلاثة وكثيرين غيرهم كانوا يسعون للهروب من الحياة الروتينية المملة التي تحكم المجتمعات الصناعية الحديثة التي ينتمون إليها.

وما اللوحات التي رسمها دولاكروا وجيروم وغيرهم في تلك الحقبة إلا تعبيراً عن هذه النزعة. فهذه اللوحات تزخر بـ«الفنتازيا» والتركيز على الحياة البدائية المتحررة من قيود الحضارة المعاصرة.

وعلى صعيد آخر كانت بيوت الأثرياء في أوروبا لا تخلو من «زاوية تركية» مفروشة بالأثاث الشرقي (العثماني) ومرّد ذلك إلى المعارض المختلفة التي أقيمت في القرن التاسع عشر وأتاحت للزوار رؤية المنتجات والصناعات العثمانية بما فيها المفروشات والأواني النحاسية وغير ذلك من «التحف الشرقية» والسلع المنزلية. وحتى الأدب الروائي لم يخلو من الإشارة إلى هذه الأشياء. نجد مثلاً في رواية توماس مان الروائي الألماني الكبير «الجبل السحري» (1924) إشارة إلى «مطحنة القهوة التركية» ولعبة ميكانيكية تُضحك وتسلي المشاهد وتستخدم لهذا

الغرض تماثيل صغيرة متحركة تمثل «تركياً» يقوم بحركات بهلوانية مضحكة. ومن اللافت أن العشرات من دور السينما والمسارح التي شُيدت في الولايات المتحدة قد استعارت الشيء الكثير من فن العمارة الإسلامي والعثماني ونجد ذلك على سبيل المثال في مدينة نيويورك وبورتلاند وشيكاغو.

خلاصة القول أن العثمانيين كانوا مصدراً للكثير من الخرافات والأوهام التي استقرت في الخيال الأوروبي. وإذا كان العثمانيون في بادئ الأمر يمثلون القوة الشريرة (الشيطانية) التي تناهض المسيحية فقد أصبحوا في القرن التاسع عشر يمثلون نموذجاً عجيباً غريباً لمجتمع غارق في لذاته وشبقه الجنسي. لقد اندثرت الإمبراطورية العثمانية، لكنها خلّفت بصماتها على الثقافة الأوروبية.

والحق أن هذه الإمبراطورية بقيت تكافح للمحافظة على نفوذها حتى أيامها الأخيرة في الوقت الذي كانت الإمبريالية الأوروبية في ذروة تسلطها وحين كانت الإمبراطوريتان البريطانية والفرنسية تسيطران على معظم مناطق المعمورة. وفي أواخر القرن التاسع عشر لم يكن هناك سوى قلة قليلة من الدول المستقلة خارج القارة الأوروبية ولعل أهمها، الدولة العثمانية والصين واليابان.وباعتبارها دولاً مستقلة كانت آنذاك محط آمال الشعوب الآسيوية المُستَعمرة في كفاحها ضد الإمبريالية الأوروبية.

من هذا المنطلق كانت عدة شعوب تتطلع إلى الإمبراطورية العثمانية لمساندتها في كفاحها ضد الاستعمار البريطاني

والفرنسي والروسي، وقد شملت هذه الشعوب المسلمين الهنود وتركمان آسيا الوسطى بالإضافة إلى شعوب شمال أفريقية والمغرب العربي.

بعض المراجع المفيدة

Entries marked with a* designate recommended readings for new students of the subjectc.

* Asad, Tala. *Anthropoly and the colonial encounter* (New York, 1973).

Bohnsted, John Wolfgang. *The Infidel scourge of God: The Turkish menace as seen by German pamphleteers of the Reformation* (Philadelphia, 1968).

* Brown, L., Carl, ed. *Imperial legacy: The Ottoman imprint on the Balkans and the Middle Easte* (New York, 1996).

* Çelik, Zenep. *Displaying the Orient: The architecture of Islam and nineteenth-century world lairs* (Berkeley, 1992).

Daniel, Norman. *Islam, Europe, and empire* (Edinburgh, 1966).

Islam and the West: The maing of an image (Edinburgh, 1962).

* Deringil, Selim. «The Ottoman twilight zone of the Middle East», in Henri J. Barkey, ed., *Reluctant neighbor: Turkey's role in the Middle East* (Washington, DC, 1996), 13 - 22.

Fischer-Galati, Stephen A. *Ottoman imperialism and German Protestantism, 1521 - 1555* (Cambridge, MA, 1959).

* Karpat, Kemal. *The Ottoman empire and its place in world history* (Leiden, 1974).

* Mansel, Philip. *Constantinople: City of the world's desire, 1453 - 1924* (London, 1995).

* Rodinson, Maxime. *Europe and the mystique of Islam* (Seattle, translation of original French 1980 edition, 1987).

Rouillard, Clarence. *The Turk in French history, thought and literature (1520 - 1660)* (Paris, 1938).

* Said, Edward. *Orientalism* (New York, 1978).

St. Clair, Alexandrine N. *The image of the Turk in Europe* (New York, 1973).

* Schacht, Joseph and C. E. Bosworth, eds. *The legacy of Islam* (Oxford, 2nd ed, 1979).

Schwoebel, Robert. *The shadow of the crescent: The Renaissance image of the Turk, 1453 - 1517* (Nieuwkoop, 1967).

Southern, R.W. *Western views of Islam in the Middle Ages* (Cambridges, 1968).

* Stevens, MaryAnne. *The Orientalists: Delacroix to Matisse* (London, 1984).

Thompson, James. *The East: Imagined, experienced, remembered* (Dublin, 1988).

* Valensi, Lucette. *The birth of the despot: Venice and the Sublime Porte* (Ithaca, 1993).